دخول السلاجقة بغداد في 447 هـ

بدأ الخليفة العباسي القائم بأمر الله يفكر جديا في الاستعانة بالسلاجقة واتخاذهم درعا واقيا للخلافة التي كانت تمر في ظروف حرجة آنذاك بسبب استبداد البساسيري بالسلطة واستفحال أمره ببغداد اصبح لا يقطع أمرا دونه ، وصار يشرف على ما يدخل بيت المال من الايرادات وما زاد في خطورة وضع الخلافة تقرب البويهيين من الفاطميين وميل البساسيري نفسه وتأثره بالمذهب الفاطمي بعد أن ساءت علاقته بالخليفة القائم بأمر الله، هذا بالاضافة إلى الخلاف الذي كان قائما بين البساسيري - قائد جند الأتراك - والملك الرحيم ابي نصر البويهي .

ولم تكن هذه الأمور تخفى على السلاجقة الذين كانوا يراقبون عن كثب مجريات الأحداث في حاضرة الخلافة. فكان ذلك من العوامل التي شجعت السلطان السلجوقي على التحرك إلى بغداد، فسار إلى همذان في المحرم سنة (447 هـ /1055 م) ، وأظهر أنه يريد الحج واصلاح طريق مكة، ومن ثم التوجه الى الشام ومصر للقضاء على النفوذ الفاطمي، ودخل السلاجقة العراق عن طريق حلوان وخطب لطغرلبك ببغداد يوم الجمعة لثمان بقين من رمضان سنة 447 هـ، ولقب بالسلطان ركن الدولة طالب طغرلبك محمد بن ميكائيل يمين أمير المؤمنين، ودخل السلطان السلجوقي بغداد في اليوم الخامس والعشرين من رمضان من سنة 447 هـ ونزل بباب الشماسية .

ولم يلبث طغرلبك أن أمر بالقبض على الملك الرحيم وارسله مقيدا الى الري على الرغم من العهد الذي اعطاه له واصحابه وعلى الرغم من تأييد الخليفة له وكان السلطان قد اتهم الملك الرحيم بتحريض العامة ببغداد ومهاجمتهم العسكر السلجوقي ، ويبدو أن طغرلبك اراد التخلص من الملك الرحيم الذي ينافسه في الخطبة ويشاركه في الالقاب ، فاسقط اسمه من الخطبة آخر رمضان من سنة 447 هـ وقبض عليه وظل معتقلا بالري حتى وفاته وقضى بذلك على آخر أمل للبويهيين في الحكم وأسدل الستار على دولتهم لتحل محلها الدولة السلجوقية .

أما القائد التركي البساسيري ، فقد خرج على طاعة الخليفة العباسي وانحاز الى الفاطميين ونجح في كسب تأييد الخليفة المستنصر بالله الفاطمي لهذه الحركة وأمده الأخير بالأموال والذخيرة والسلاح والهدايا ، كما تبودلت المراسلات بين البساسيري، وداعي الدعاة الفاطمي المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي الذي كان آنذاك مقيما في القاهرة ، وتقرر خروج المؤيد في الدين لنجدة البساسيري، فسار في جماعة من الجند تحمل الأموال والسلاح و الخلع وعمل المؤيد بعد وصوله إلى الرحبة على استمالة أمراء العرب بالعراق، لضمان نجاح حركة البساسيري ضد الخلافة االعباسية و السلاجقة .

وكان نفوذ السلاجقة قد أخذ في الازدياد بالعراق منذ عودة السلطان طغرلبك الى بغداد سنة 449 هـ، حيث أفاض عليه الخليفة العباسي القائم بأمر الله بالخلع، الا أن السلطان لم ينعم بالاستقرار في دولته، اذ لم يلبث أخاه ابراهيم ينال إن خرج عليه واعلن العصيان ، وكان ينال هذا قد استولى على بلاد الجبل وهمذان وامتد نفوذه على ما حولها من البلاد، فضلا عن ولاية الموصل وما يتبعها من الأعمال في اقليم الجزيرة.

وقد استغل المؤيد فرصة الخلاف بين ابراهيم ينال واخيه السلطان طغرلبك وعمد الى مراسلة ينال واستمالته إلى جانبه وتعهد بإمداده بالأموال والسلاح لضمان نجاح حركته ضد أخيه السلطان طغرلبك، فطلب ينال الخلع والالقاب والأموال من الخليفة الفاطمي، وتعهد بأن يخطب للفاطميين بالخلافة والامامة ويقدمها على خطبته، فوافق المؤيد في الدين على ذلك ووعده بتلبية طلباته، فغادر ينال الموصل الى بلاد الجبل سنة 450 هـ معلنا العصيان على طغرلبك .

وأدرك السلطان السلجوقي خطورة الموقف، بعد خروج ينال وانحيازه إلى الفاطميين فصمم على وضع حد لتمرد اخيه فدارت بينهما معركة كبيرة بالقرب من الري، انهزم على أثرها ينال ووقع في الأسر فأمر السلطان بقتله في(جمادى الآخرة من سنة451 هـ) اما البساسيري فقد انتهز فرصة رحيل السلطان طغرلبك عن بغداد وانشغاله في القضاء على حركة اخيه ابراهيم ينال، وزحف الى بغداد حاملا الرايات المستنصرية التي كتب عليها {الامام المستنصر بالله أبو تميم امير المؤمنين} ورافقه قريش بن بدران امير بني عقيل في مائتي فارس فنجحا في الاستيلاء على بغداد في (اليوم الثامن من شهر ذي القعدة من سنة 450 هـ) دون مقاومة تذكر، واضطر الخليفة العباسي القائم بأمر الله إلى طلب الأمان من قريش بن بدران، فأجابه إلى ما طلب، وبعث به مع ابن عمه الامير محي الدين مهارش بن المجلي العقيلي إلى حديثة عانة، فنزل بها مع اهله وحريمه وحاشيته، وقطعت الخطبة للعباسيين في الثالث عشر من ذي القعدة من السنة المذكورة ودعي للخليفة الفاطمي المستنصر بالله ، وارسل البساسيري إلى مصر يبشر الخليفة الفاطمي بما حققه من انتصارات على الخلافة العباسية، وأمر بضرب الدنانير باسم المستنصر بالله وسماها المستنصرية .

ولما فرغ السلطان طغرليك من أمر اخيه ينال، سارع في التوجه الى العراق لإعادة الخليفة القائم بأمر الله الى مقر خلافته في بغداد،، وارسل الى البساسيري وقريش بن بدران يطلب اليهما إعادة الخليفة، ويعرب لهما عدم رغبته في دخول العراق، وانه يقنع بذكر اسمه في الخطبة والسكه بعد الخليفة، الا أن البساسيري رفض اجابة طلبه فواصل السلطان زحفه نحو العراق، فلما اقترب من بغداد، ادرك البساسيري انه لا قبل له بمقاومته ، فرحل عن بغداد إلى الكوفة في اليوم السادس من ذي القعدة من سنة 451 هـ ، وكان الأمير مهارش العقيلي قد سار الى بغداد بصحبة الخليفة القائم بأمر الله، فبالغ السلطان طغرلك في الاحتفاء بقدومه إلى حاضرة الخلافة.

ثم أنفذ السلطان العساكر في طلب البساسيري فادركته في طريق الكوفة، وكان عازما على الهرب إلى الشام وبصحبته دبيس بن مزيد أمير الحلة فحمل السلاجقة على اصحاب البساسيري وانتهت المعركة بمقتل البساسيري فأمر السلطان بحمل رأسه إلى بغداد في ذي الحجة من سنة 451 هـ .

وعظم نفوذ طغرلبك بعد هذه الانتصارات التي حققها ضد اعدائه واعداء الخلافة فأستتب له الأمر في العراق، ولقبه الخليفة بلقب جديد هو «ركن الدين» في الوقت الذي اضمحل فيه مركز الخليفة العباسي وضعف شأنه امام السلطان، فلم يعد له دور يذكر في سياسة الدولة، ولم يستطع التصرف في ممتلكاته ، وأصبح يعيش من اقطاعات مقررة تكفي لسد جميع نفقاته ، واستبد طغرلبك بالخلافة وبالغ في تحدي الخليفة، فأمر أن تحمل موارد العراق المالية إلى خزانته بدلا من خزانة الخليفة .

ولم يكتف طغرلبك بذلك فحسب، بل فكر في مصاهرة الخليفة القائم بأمر الله بالزواج من ابنته ، تدعيما لسلطانه السياسي، وربط الأسرة السلجوقية بالبيت العباسي، وقد انزعج الخليفة ورفض طلب طغرلبك، الا ان وافق على هذا الزواج مضطرا بعد ان تدهورت العلاقات بينه وبين السلطان على أثر رفض الخليفة مصاهرته وتم عقد الزواج في (شهر شعبان من سنة 454 هـ) غير أن السلطان لم يلبث أن توفي في الثامن من شهر رمضان سنة 455 هـ .

والواقع أن طغرلبك يعتبر المؤسس الحقيقي لدولة السلاجقة في ايران والعراق، ويرجع اليه الفضل في بناء الدولة السلجوقية وبسط نفوذها وتدعيم مركزها فوضع لها بذلك اساسا متينا أستطاع خلفاؤه من بعده ان يقيموا على هذا الأساس بناء شامخا، واصبح السلاجقة اكبر قوة في الدولة العباسية، وبلغوا في عصر ملكشاه اقصى درجات القوة والاتساع فامتد نفوذهم من بحيرة خوارزم شمالا إلى حدود اليمن جنوبا ومن حدود الصين شرقا إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط غربا .